فضل الاكثار من ذكر الله

وأمر - الحق - سبحانه- بذكره كثيراً الشد حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، فأى لحظة خلا فيها العبد ذكر الله كانت حسرة يوم القيامة. وفى البيهقى عن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة» وعن معاذ يرفعه « ليس يتحسر أهله الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها » وعن ابن مسعود رضى الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى فقال: يامحمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر [١] وعنه أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن العبد إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر قبيض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه وصعد بهن فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجئ بهن وجه الرحمن جل وعلا، وذلك قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه [٢] [٣] وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن مايذكرون من جلال الله التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل تذكر بصاحبها أما يجب أحدكم أن يكون له من يذكربه [٤] فالذكراين الله كثيرا لهم

١- رواه الترمذى وقال : حديث حسن.

٢- بعض الآية ١٠ من سورة فاطر.

٣- رواه الحاكم وقال : صحيح الأسناد.

٤- رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

المغفرة والأجر العظيم روى أبو هريرة - رضى الله عنه - عن البنى صلى الله عليه وسلم : إن الله - عز وجل يقول : أنا مع عبدى ، إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه والمعية هنا : دليل التكريم الإلهى ، والرفعة الربانية للعبد الذاكر ، وكفى بمعية الله شرفاً وقدراً وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله علي كل أحيانه » وقال الحسن : أحب عباد الله إلى الله أكثرهم له ذكرا وأتقاهم قلباً : أن النبى صلى الله عليه وسلم يبدأ بالليل مرحلة جديدة من مراحل الإقبال على الله فعن حذيفة وأبى ذر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال : « باسمك اللهم أحيا وأموت » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، وإن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ».

وهذا الحديث الشريف شرح لقوله تعالى : « الله يتوفى فى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخر إلى أجل مسمى [١] والمؤمن حين تتدبر ذلك يشعر أن روحه فى يد الله، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين. قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور ، فإن كان ذلك فهو يرجوا الرحمة. وإن قام ليبدأ نهاراً آخر فهو يرجو أن يحيا فى ضمان الله وحفظه. عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسى إليك، وفوضت أمرى إليك ، وألجات ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأة منحا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت.... فإن مت مت على الفطرة » والواقع أن الدعوات التى علمنا إياها الرسول الكريم صلى الله عليه

١- الأية ٤٢ سورة الزمر.

وسلم تريح الأعصاب وتطمئن القلوب وجاء فى رواية أخرى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيئ فالق الحب والنوى، منزل التوراه والإنجيل والقرآن... أعوذ بك من شر كل ذى شر... أنت آخذ بناصيته. أنت الأول فليس قبلك شيئ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ، وانت الظاهر فليس فوقك شئ، وأنت الباطن فليس دونك شئ. اقص عنا الدين، واغننا من الفقر » ولاتحسبن أنه - عليه الصلاة والسلام - يأخذه النعاس العميق بعد هذه الضراعات التى ناجى بها ربه، لا .. ماهى إلا ساعة ثم يستيقظ ليلى أمر الله بأستئناف التسبيح والتحميد، فى جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار قال تعالى : « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن اليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا [1] ».

وقد ينام بعد ذلك ولكن القلب المنعم بالتقوى يقظان ، فاذا تقلب فى فراسه، أوتهيأ لقيام ليلة قال : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق ، ومحمد والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاضمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت ». وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب أمته فى استقبال الليل بكيان نقى نظيف فيقول صلى الله عليه وسلم : « طهروا هذه الأجساد طهركم الله تعالى فإنه لايبيت أحد طاهرا إلا بات فى شعاره ملك يقول : « اللهم اغفر له فإنه بات طاهرا ». ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولفاطمة رضى الله عنها : « إذا أويتما إلى

١- سورة الإنسان الآية ٢٥و٢٦.

فراشكما، أو إذا أخذتما مضاجعكم فكبرا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثاً وثلاثين، واحمد ثلاثا وثلاثين». وفى رواية التسبيح: « أربعا وثلاثين » قال على فما تركته منذ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل له : ولا ليلة صفين ؟ قال : ولا ليلة صفين وكان على كرم الله وجهه كثير الهموم ،لكن لم تبعده عن ذكر الله قبل كل منام بل كان يهزمها بهذا الذكر الموصل عن أبى أمامة رضى الله عنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من أوى إلى فراشه طاهراً، وذكر الله عز وجل حتى يدركه النعاس، لم يتقلب ساعة من الليل يسأل الله عز وجل فيها خيراً من خير الدنيا والآخره إلا أعطاه إياه»

فمن أراد أن ينتصر على شيطانه عليه بذكر الله عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعقد الشيطان على قافيه رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقده مكانها : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ وذكر الله، إنحلت عقدة، وإن توضأ انحلت عقدة ، وإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان [1] » بهذا يصح البدن وينشرح الصدر. وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أنس رضى الله تعالى عنها حينما قالت له : يارسول الله ... أوصنى... فقال لها : « اهجرى المعاصى. فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين بشئ أحب إليه من كثرة ذكره» وعن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور على منابر اللؤلؤ، تغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء » قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يارسول الله صفهم لنا نعرفهم .. قال : « هم المتحابون فى سبيل الله

١- الموطأ. ح ١ ص ٧٦ دار إحياء التراث.

٢- رواه الطبرانى بإسناد حسن.

من قبائل شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرون [٢] وينبغى أن يكون الموضع الذى يذكر فيه خاليا من كل مايشغل البال، ويحصل من وجوده الاشتغال والواسواس ، ونظيفاً طاهراً- فإنه أعظم فى احترام الذكر والمذكور. وينبغى أن يكون فم الذاكر نظيفاً فإن كان رائحة كريهة أزال ذلك بالسواك... فإن كان فيه نجاسة أزالها بالغسل بالماء فلوذكر ولم يغسلها فهو مكروه ولا يحرم.

روى عن معاذ بن جبل- رضى الله عنه - أنه قال : (إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت : « أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » وهذا رجل رآه سيد المرسلين صلى الله عليه ليلة المعراج وقد نال من الرفعة المكانة القصوى.

يقول صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بى برجل مغيب فى نور العرش، قلت : من هذا ؟ أهذا ملك قيل : لا ، قلت نبى ؟ قيل لا قلت من هو ؟ قال : هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يستسب لوالديه » أى لم يجلب لهما السب والشتم قيل لمحمد بن النضر أما تستوحسن وحدك قال: كيف أستوحس وهو يقول : أنا جليس من ذكرنى . فبالذكر يتطهر القلب ويستيقظ الضمير، ويزداد إيمان العبد حتى يطمئن بذلك قلبه ويسكن فؤداه قال تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب [١] وقد بلغ من مكانه الذكر عند الله تبارك وتعالى أنه قرنه بأصول الدين، فجمع بينه وبين الواحدانية والصلاة والصوم والصدقة. حدثنا محمد بن إسماعيل ... أن الحارث الأشعرى حدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمر يحى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى إسرائل أن يعلموا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى : أن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم،

١- الآية ٢٨ من سورة الرعد.

وإما أنا آمرهم ،فقال يحى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب، فجمع الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وتعدوا علي الشرف ، فقال إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن : أو لهن أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبد من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه دارى وهذا عملى فأعمل وأد إلى ، فكان يعمل ويؤدى إلى غيره سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده- فى صلاته مالم يلتفت. وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه وقد موه ليضربوا عنقه، فقال أنا فديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم ، وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لايحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، قال النبى صلى الله عليه وسلم: وأنا آمركم بخمس آ لله أمرنى بهن : السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فأنه من فاروق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا [١] جهنم، فقال رجل : يارسول الله وإن صلى وصام؟ قال : وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين. عباد الله [٢] فالذى يذكر الله يقى نفسه ويحميها من كيد الشيطان : إنسيا أو جنيا وقال سبحانه

١- جثا جهنم. يقال بالجاء المهملة من حثا : إذا اغرف وضم، ويقال بالجيم من جثا : جمع جثوه وهى الجماعة المحكوم عليهم بالنار.

٢- سنن الترمذى جـ٥ كتاب الأمثال باب ٣ ماجاء فى مثل الصلاة والصيام والصدقة حديث ٢٨٦٣ ص ١٣٦ دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٣- بعض الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

عن المؤمنين : « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [٣] » وليس هناك شك فى أن العبد الذى يستحضر عظمة الله فى قلبه، ويراقب هيمنه سلطانه الأعلى على نفسه - لاشك أنه عبد محفوظ بالعناية قال تعالى : « وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم.إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [١] والذكر أحد أربعة أشياء يقوم عليها خير الدنيا والآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من أعطيهن فقد أعطى خيرى الدنيا والآخرة قلبا شاكرا، ولسانا ذاكر، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لاتبغيه حوباً [٢] فى نفسها وماله [٣] وروى عن معاذ - رضى الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله فقال : « أى المجاهدين أعظم أجرا؟ قال: أكثرهم لله- تبارك وتعالى - ذكرا، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أكثرهم لله- تبارك وتعالى - ذكرا ، فقال أبو بكر لعمر: ياأبا حفص، ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجل [٤] » فمعيار التفضيل هو كثرة الذكر مقترنا بالعبادة ، فكلما كثر ذكر العبد مع أداء الفريضة ازداد فضلا واغتنم خيراً، عن أبى سعيد الخدرى، قال: خرج علينا معاوية على حلقة فى المسجد. فقال : ماأجلسكم ؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. قال : آلله- ماأجلسكم إلاذاك؟ قالوا: والله ماأجلسنا إلا ذاك . قال: أما إنى لم أستخلفكم تهمة لكم. وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل عنه حديثا منى. وإن رسول الله صلى عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه. فقال : « ماأجللسكم؟ » قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده

١- الآية ٢٠٠ . ٢٠١ سورة الأعراف.

٢- حوبا : أى إثما.

٣- رواه الطبرانى.

٤- رواه أحمد والطبرانى

على ماهدانا للإسلام، ومن به علينا. قال « آلله- ماأجلسكم إلاذاك؟ » قالوا: والله ماأجلسنا إلاذاك . قال « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم. ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى، أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة[١] لقد بلغ من مكانة الذكر فى قلوبهم أنهم كانوا يجعلونه بمثابة الإيمان، وينزلونه منزلة الإيمان. قال صلى الله عليه وسلم: « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده[٢]

وقال أبو الدرداء: لكل شيئ جلاء وجلاء القلوب ذكر الله » وفى البهيقى مرفوعا: « لكل شيئ صقالة وإن صقالة القلب ذكر الله» ولاتريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس وغيره، وجلاؤه ذكر الله فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرأة البيضاء، وإذا ترك الذكر صدئ، وصدأ القلب من أمرين: الغفلة والذنب، وجلاؤه بأمرين: الذكر والاستغفار فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكما على قلبه، فيرى الباطل فى صورة الحق، والحق فى صورة الباطل فإن تراكم عليه الصدأ أظلم واسود، وركبه الران الذى قال الله تعالى فيه: « كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون[٣] ».

وحينئذ يفسد تصوره فلا يقبل حقا ولاينكر باطلا، وذلك أعظم عقوبات القلب فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور. وأصل ذلك كله من الغفلة عن ذكر الله واتباع الهوى فى سخط الله ، فانهما يطمسان نور البصيرة، قال الله تعالى: « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا[٤] فالأعمال كلها إنما شرعت لإقامة ذكر الله قال الله تعالى: « وأقم الصلاة لذكرى[٥] »

١- صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر دار إحياء التراث العربى بيروت.

٢- نفس المرجع السابقة.

٣- الآية ١٤ سورة المطففين.

٤- بعض الآية ٢٨ من سورة الكهف.

٥- بعض الآية من سورة طه.

٦- بعض الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

أى لأجل ذكرى وقال تعالى: « ولذكر الله أكبر[٦] » أى أكبر من عمل. فحضور القلب مع الله على الدوام هو المقدم على سائر العبادات، بل به شرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية وللذكر أول وآخر، فأوله يوجب الأنس بالله وأخره يوجب الحب لله، والمطلوب ألا يذكر إلا مع الأنس بالله ، والذكر يكون فى البداية متكلفاً لصرف قلبه عن الوسواس ولسانه عن اللغو - إلى ذكر الله ثم يأنس بذكر الله تعالى، وينغرس فى قلبه حب المذكور ، ثم يصير مضطر إلى كثرة ذكر الله تعالى، فإن من أحب شيئاً ولع بذكره ولم يصبر عنه « بعض مايقال دبر كل صلاة ».

عن معاذ بن جبل- رضى الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده، ثم قال : « يامعاذ، والله إنى لأحبك» فقال له معاذ : يأبى أنت وأمى يارسول الله، وأنا والله أحبك. قال : « أوصيك يامعاذ لاتدعن فى دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك [١] » وعن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال : قال رسو الله صلى الله عليه وسلم : « من سبح لله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسع وتسعون، ثم قال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيئ قدير، غفرت خطاياه، وإن كانت مثل - زبد البحر[٢] » وعن وراد مولى المغيرة بن شعبة، قال : كتب المغيرة إلى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كلا صلاة إذا سلم : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا

١- أخرجه أبو داود والنائى واللفظ له وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما.

٢- مسلم (٥٩٥)، وأبو داود (١٥٠٤) ، والنائى (٩٩٧٠)و (٩٩٧١) فى الكبرى.

٣- البخارى (٨٤٤)، ومسلم(٥٩٣)، وابو داود (١٥٠٥) والنائى (٣/ ٧٠) فى المجتبى و(١٢٩) فى عمل اليوم والليلة.

ينفع ذا الجد منك الجد[٣] » وعن سعد بن أبى وقاص- رضى الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات : « اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر[١] واعلم أن ماورد فى فضل الذكر من الآيات والأخبار والآثار لا يحصى فأكتفى بهذا القدر راجيا العلى القدير أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتنا وأن يبارك بفضله فى أولادنا ويجعلهم من حفظة القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يرحم الآباء والأمهات وأن يتوفنا مسلمين إنه على مايشاء قدير.

١- البخارى (٦٣٧٤) والترمذى (٣٥٦٢)، والنسائى (٢٦٦/٨) فى المجتبى.